منشىء المجلة
انطون الجميّل

الزهور

المدير المسؤول
امين تقي الدين

الجزء الثالث — مايو (ايار) ١٩١٣ — السنة الرابعة

شاعرية خليل مطران [1]

على راية الفرقة يعلّق القائدُ شارةَ المجد والشرف ، عندما يبلي أفراد تلك الفرقة البلاء الحسن في مواقع القتال . . .

وفي ميدان النهضة الادبية الحديثة أبلى شعراؤنا بلاءً حسناً ، فكأن سموّ افندينا المعظّم قد علّق تلك الشارة على رايتهم اذ وضعها على صدر شاعرنا خليل مطران . . .

فليهنأ الخليل حامل لواء الشعر العصري ؛ وليهنأ النيشان الذي حلّ على صدر يحوي الدرّ والجوهر؛ وليُحمَد مليكُ البلاد على آلائه وليُشكر...

أما بعد . فقد رأيت أن خير ما يصاغ من التهاني في مثل هذا الاحتفال الزاهر هو حديثٌ أُطارحكم اياه ، ايها السادة ، عن المحتفَل بهِ وعن شاعريته . فأقول :

« منشدٌ للغرام لم يشدُ إلاّ كان إنشادُهُ نواحاً شجيًا »

---

(١) خطاب قدّمه منشىء هذه المجلة الى « مجلة سركيس » بمناسبة حفلة تكريم خليل افندي مطران

« شاعرٌ كان عمرُهُ بيتَ تشبيهٍ وكان الأنينُ فيهِ الرويَّا »

« إنَّ في نظمهِ لحسًّا لطيفاً باقياً منهُ في السطورِ خفيًّا »

هي أبيات كتبها خليل مطران على الصفحة الأولى من ديوان الشاعر الفرنسوي « ألفرد ده موسه » . ولا يسع من ينظر فيها الا ان يقابل بين حالتَيْ الواصف والموصوف ، وشعر الأول والثاني ، فيجدها تنطبق أتمّ الانطباق على الاثنين : كأن الشاعرَ العربي وصف حاله لما وصف حال الشاعر الافرنجي . . .

من المعروف أن لحياة الكاتب ، والمحيط الذي ينشأ ويعيش فيهِ تأثيراً كبيراً في كتابته . ونرى على ذلك دليلاً واضحاً في شعر خليل :

دبَّ شاعرنا وشبَّ تحت سماء سوريا الجميلة ، بين جبالها وقممها البيضاء ، أمام بحرها الصافي وأمواجه الزرقاء ، فجاء شعره رقيقاً لطيفاً... ترعرع وكبر في وادي النيل بين آثار المدنية القديمة وصروحها المظيمة ، فكان إنشاده فخماً عظيماً . عاش تارة في القرى والجبال، فتشرَّب حب الفضيلة والطبيعة ، فأسمعنا الشعر زاهراً طاهراً ؛ وعاش طوراً في المدن ، فراعه ما فيها من التعاسة والشقاء ، فألقى علينا إنشاده مبكياً زاجراً

قال في مقدمة ديوانه ان القارئ « يدارجهُ مدارجةً تمثّلهُ لديهِ في كل حالة مرَّ بها » ولقد أصاب في ذلك ، فان شعره بالحقيقة رسمٌ تمثَّلت لنا فيهِ كل أطوار صاحبه ، وارتسمت بين أبياتهِ كل عواطف قلبه ، وتأثرات فؤاده . وهذا سرُّ محاسن شعره العديدة

وصف لنا خليلٌ حياته في صباه ، بين آثار بعلبك ، فتمثلناه :

« نَزَقاً بِنَهنَّ غرًّا لعوباً لاهياً عن تبصُّرٍ واعتبارِ »
« مستقلاً عظيمَها مستخفّاً ما بها من مهابةٍ ووقارِ »
« نتبارى عَدْواً كأنّا فراشا روضة ما لنا من استقرارِ »

ثم بعد ان كبر وخاض معترك هذه الحياة نلقاه :

« في هجرةٍ لا انسَ فيها للغريبِ ولا صفاء
تتقاذفُ الآفاقُ بي قَذْفَ العواصف للهباء
وتُحيطُ بي لججُ الصروف فمن بلاءٍ في بلاء »

وهكذا يمكننا ان ندرس حياة خليل شطراً شطراً، من مطالعة ديوانه سطراً سطراً

قلنا انه عاش بين جمال الطبيعة ومظالم البشر ؛ وهذا ما قوّى فيهِ الخيال والشعور. ومعروفٌ أن هاتين القوّتين هما جناحا الشاعر يحلّق بهما الى أعلى سماء الشعر ؛ ويأمن تهشمهما اذا كان العقل رائدهُ في حياته العلوية . وقد قال في مقدّمة ديوانهِ إنّ شعرَه هو « شعر الحياة والحقيقة والخيال» أي انّ الذي أوحاهُ هو الحسُّ والعقل والمخيّلة . وهذا هو التقسيم الذي نتبعه في درس شعره :

١ — الخيال :

هو أقوى قوانا العقلية لأنه وحده القوة الفاعلة الموجِدة ، وسائر القوى ، كالحس والحافظة والعقل ، ليست الا قوى مفعولة تتأثر وتعمل بما يطرأ عليها . واذا كان الشعر كما حدّه مرمونتل « صورة تتكلم او كلاماً

يصوّر » ، وهو كذلك ، يكون الخيال شرط الشاعرية الأول . وقد قيل: « الشعر هو ابنُ الخيال البكر » . وبفضل هذه القوّة يفوق الشاعرُ المصوِّرَ ، لأنه بكلمة واحدة كثيراً ما يمثّلُ لنا مشهداً يقتضي تصويره ألواناً مختلفة وتفاصيل متعددة . وكثيراً ما رأينا « خليلاً » أدقّ تصويراً وأبلغ رسماً من أمهر المصوّرين ، فاذا وصف مثلاً الجنديَّ الجريح وقائده يقلّدُهُ وساماً ، قال :

« . . . . . فقلّده وساماً　　وكلُّ جراحةٍ فيهِ وسامُ »

واذا كانت نفسهُ مثقلةً بالهمّ ، يرى ذلك الهم

« . . . . . كبحرٍ　　ضمَّ في جوفهِ البعيد غريقا »

واذا شكت عينهُ المسهَّدة طول الليل ، فهي :

« تحسب السرجَ في حشاهُ قروحاً　　وترى الشهبَ في سماهُ حروقا »

وهذا بيتٌ تكاد تكون كلُّ كلمةٍ فيهِ صورةً حسية

واذا تبسم أمامه عبدٌ يرى ابتسامهُ

« . . . مثل وميضٍ في حالكٍ مسودّ»

ويرى الليلة الجميلة :

« أشبهَ بالجاريةِ الغراء　　في حلةٍ شفافةٍ سوداء »

واذا تمثّل الشمسَ منيرةً في كبد السماء ، تصوّر له مخيلتهُ المتقدة هذا المنظر تصويراً يعجز عنه قلم المصوّر ، فيقول :

تبعثُ الشمسُ باهراتِ شعاعٍ　　تغتدي بانحدارِها شبهَ رُبدِ
فهي في الافق تارةً مسحاتٌ　　من بهارٍ وتارةً نثرُ وردِ

وهي بين الغصون نسج دقيقٌ من نضارٍ يشفُّ عن لازوردِ

واذا خاطب الغادة الحسناء ، قال لها :

أنتِ ابتسامٌ صيغ في قطرةٍ من الندى في قَبَسٍ من صباح

واذا رأى قرطين (حلقاً) في أُذن تلك الحسناء تصوَّرهما « دُرَّا جرى من صَدَف »

واذا رآها مكللةً بزهر الفل أعجب « بالورد يحمل فلاً »

واذا كانت تلك الغادة مقبلةً رآها :

« . . . . كالغصنِ أثقلهُ الجنى فمال قليلاً واستوى متقوّما »

واذا وصف الصبيةَ اللعوبَ الطروب ، قال فأبدع وصفاً وتشبيهاً :

« ضحّاكةٌ كالنَورِ في الزهرِ رقّاصةٌ كالغصنِ في الوادي »

« كرّارةٌ كنسيمة السحرِ ثرثارةٌ كالطائرِ الشادي »

وهل تكون مثل هذه الفتاة اذا نزل بها همٌّ الاَّ :

« كطائرٍ راقهُ غديرٌ فرفَّهُ جانحاً وطارْ »

واذا عبث الهواء بشعرَها قال :

« وتناثرت ضفُرُ الفتاةِ غمائماً سترت عن الأبصار طلعة نجمها »

واذا وصف الولد الذي لا يقرُّ له قرار ، قال :

« كزهرة روض تمرُّ بها فتقلقها النُسُمُ السائره »

واذا تكلم عن السفن الحربية المائسة على ظهر البحار وصفها كالجنّ في جدِّ العواصف تلعب » واذا وصف سلطة الملك صاحب الشوكة والاقتدار ، قال :

« أنت الرجاء فأي شيء ترتجي　　والروعُ انت فأي شيء ترهبُ »
« والملكُ جسمٌ أنت فيــهِ هامةٌ　　ويداك مشرقُ شمسهِ والمغربُ »

أو قال ايضاً فأجاد :

« وكأنَّ درَّة سيفهِ عينٌ ترى　　ما تحت قائمِ سيفــهِ آجالا »

فما أبلغ هذه الاستعارات والتشابيه وما أجمل !

واذا وصف جبلاً مزحلقاً صوَّره :

« كثيرَ الثلوم كأنَّ الفتى　　اذا زلّ يهوي على مبردِ »

وهو بيتٌ من قصيدةٍ عصماء عنوانها « فتاة الجبل الاسود » فيها من الوصف الفتان ما شاء الخيال وشاء التفنن. من ذلك انه عندما يصفُ جمال الفتاة وهي بارزة الى ساحةِ القتال لا يصفهُ كما وصف جمال غيرها من الحسان ، بل يراعي مقتضى الحال ، ويستمير كل صوره من التعابير الحربية ، فيقول :

« لهيبُ الحروبِ على وجنتيهِ　　والنقعُ في شعرهِ الأسودِ »
« وفي عينهِ مثلُ برقِ السيوفِ　　وظلُّ المنيــةِ في الأثمدِ »

وعند ما تنكشف حقيقة هذا الفتى — أو بالأحرى هذه الفتاة — فتكشف عن صدرها أمام قائد الأعداء ، يُبدع خليل في وصفها أيما ابداع اذ يقول :

وأبرز نهدَي فتاةٍ كَعابٍ　　بطرفٍ حيّي ووجهٍ ندي
كَحقّيْ لجينٍ بقفلَي عقيقٍ　　وكنزين في رَصَدٍ مرصدِ
فكبَّر لما رآهُ الأميرُ　　وهلّل كلٌّ من الشُهَّدِ

وراعَهمُ ذانك التوأمان وطوقاهما من دم الأكبدِ
ووثبُهما عنـد ما أُطلقا الى ظاهر الدرع والمجسدِ
كوثبِ صغار المها الظامئاتِ نفرْنَ خفافاً الى موردِ

ويطول بنا المقال لو جئنا على ذكر كل ما توحي المخيلة الى شاعرنا من لطائف الابتكار . وله قصيـدة شهيرة في وصف بعلبك هي مجمع الصوَر وملعب الخيال . وقد جعلتهُ بحقٍّ يسمى «شاعر بعلبك والاهرام» وبالاجمال فان خيال خليل يزين ويحسن ويحلي كل ما تقع عليهِ أبصاره ، فيحقُّ له ان يقولَ كما قال لعروس شعره :

وأبدلُ نور الشمس ما شاءتِ المنى عقيقاً وتبراً ساكباً ونضارا
وأنظمُ من زُهر الدجى لكِ خاتماً وتاجاً وعقداً فاخراً وسوارا
وأصنعُ نوطاً باهراً من هلالها وأنسج من غزل الضياء دثارا

وهذا الذي وضع خليل في مقدمة شعراء الطبقة الاولى في الوصف . اما في الشعر القصصي والخطة التي اختطها للنظم العربي في هذا الباب ، فاقرأوا « عين الأم » و « نابليون الاول » و « ليمون يوسف افندي » و « حكاية شاعر » و « شهيد المروّة » و « العصفور » و « العقـاب » و « مقتل بزرجمهر » و « الطفلة البويرية » و « حكاية عاشقين » و « الجنين الشهيد » الخ تروا المقام الفريد الذي ناله خليل في هذا النوع على ان الخيال وحده لا يجعل المرء شاعراً . اذ يكون نظمهُ والحالة هذه بارداً جامداً ، نرتاح اليهِ ونجد فيهِ بعض البهجة ، لكنهُ لايحرّك فينا ساكناً ، ولا يثير شعوراً كامناً ، كما نرى ذلك في شعراء الوصف ؛ فان هناك ركناً آخر يقوم عليهِ بيت الشعر وهو الحس او الشعور

٢ — الشعور

قال خليل مطران في مقدمة ديوانه : « وليس اكثر شعري هذا بين الطرس والمداد الاَّ مدامع ذرفتها ، وزفرات صعَّدتها ، وقطَع من الحياة بدَّدتها ؛ ثم نظمتها فتوهمت اني استعدتها » وهكذا يتحقق لنا قوله الاول ان شعره ليس فقط « شعر خيال » . بل هو ايضاً « شعر حياة » ومن القول ما يؤثر في النفس وان خلا من كل صورة ، لانهُ صورة الحياة الحقيقية . وفي شعر خليل الشيء الكثير من هذا القبيل . كقوله مثلاً في « مشاكاة » وهي من اوليات قصائده :

« أرى مثل سهدي في الكوكبِ　　أحلَّ بهِ مثلُ ما حلَّ بي
يهيمُ هيامي من وجدهِ　　ويهربُ من مهدهِ مهربي
ونجتازُ هذا الفضاء الرحيبَ　　إلاَّ بنا فهو لم يرحبِ
فيا نجمُ ما النارُ تُغني حشاكَ　　وما سيلُ مدمعك الصيّبِ
أسِرَّ هواكَ الى صاحبٍ　　يؤاخيك في همك المنصبِ
اما كلُّ ذي كلفٍ متعب　　شريكٌ لذي الكلفِ المتعبِ »

فهذه أبيات كلها رقةٌ وشعور على خلوّها من الصوَر وأساليب البديع . وان في المواضيع الشعرية المبتكرة التي طرقها خليل لبرهاناً واضحاً على شعورٍ كبير مقرون بخيالٍ حادّ . فالحادثة البسيطة تُهيج عواطفهُ وتثير اشجانهُ . فينظمها ويحيي نظمُها محرّكاً عواطف قارئهِ مهيجاً احزانه . اسمعهُ يتكلم عن مهد الطفل تظنهُ الأم الحنون :

ويهزُّهُ خفقُ الفؤادِ على مناجاةِ الضمير

واذا سمع ذاك الطفل يناغي في مهده ، فضّل مناغاته على هديل الطيور وتغريد البلابل

« . . . . . فكانها أنشدَ علّم الطيورَ التغنا »

« وجمعَ الأملاك حول المهدِ يُسمعها شدوَ المنى والسعدِ »

هو يشعر بالألم فيصوّر لنا الفؤادَ المتألم :

« كشلوٍ بأنيابِ الهمومِ مبضّعِ » .

ويدري اي تأثير يصيبُ القلبَ المجروح فيمثّل عواطفهُ المكسورة

« كجرحٍ قد ألطّفهُ بلمسي وإن هو مسّهُ غيري أُضامُ »

هو يفهم قيمة الدمعة التي قال «لامرتين» انفيها من الشعر اكثر مما في دواوين جميع الشعراء ، فيمثّل لنا الدموعَ غاسلة كل إثم ، مطهرة من كل دنس

هو ذاق من الحب حلوهُ ومرّهُ فيمثّل لنا الحب تارة غاية الحياة ، وطوراً الباعث على كل أمر عظيم

والحبُّ ألزمُ للارواحِ ما عظمت وقد يكونُ لها أدعى إلى العِظَمِ

أما تحديده للحب فهو :

الحبُّ في المعنى العميم الكامل معنى المراحم والفداء الشامل

يعرف أن قلب الانسان يعيش ويفنى من هذه العاطفة في وقت معاً فيقول :

اسكريني على الدوام وأفني مهجتي أدمعاً وعزمي حريقا

وينصح اخوانه اذ يقول :

أحباي اني مذ أفقتُ من الهوى شقيتُ فكونوا الدهرَ فيهِ سكارى

اما الذي لم يُدرك هذه العاطفة فهو لم يُدرك سرّ هذه الحياة :

مَن لم يُحبّ فما الصفاء لهُ صفوٌ وما أكدارُهُ كدرُ
ويرى الحياةَ ولا يعيشُ كما مرّت على مرآتها الصورُ

ويقول عن قلبه وهو يعني كل قلب

يبغي الشفاء من الولوعِ ولا شفاء مع الولوعْ
ألف الصبابةَ فهي أمٌّ مُرضع وهو الرضيعْ
والطفلُ يشقى بالفطامِ فكيفَ يقبلُهُ مطيعْ

لا متسع لدينا ايها السادة لذكر كل ما يجول في صدر شاعرنا الرحب من العواطف ، لحنينه الى الوطن ، وعطشهِ الى ذلك المنهل الصافي الذي روى صباه ، ووفائه لأصدقائه ونزوعه الى كل أمر نبيل . فان فؤادهُ كصحيفةٍ حساسة ينطبع عليها كل ما يمرّ بها ، بل هو الغصن الرطب يميل بهِ كل نسيم ، أو وجه البحيرة الصافي يحرّكه كل ريح . وهو القائل عن نفسه :

والذي درعهُ فؤادٌ رقيقٌ فجريحٌ إن يقتحمْ أو يقاحم

فمسكين ذو القلب الرقيق في معترك هذه الحياة اذ يبيت

« وفي الجسم نارٌ يلذعُ القلبَ وقدُها وفي القلبِ نارٌ مثلها تلذعُ الجسما »

واذا كان صاحب القلب الرقيق شاعراً من طبقة خليل فهو يصيح:

« أنا الألمُ الساجي لبعد مزافري أنا الأملُ الداجي ولم يخبُ نبراسي »

« أنا الأسدُ الباكي أنا جبلُ الأسى أنا الرمسُ يمشي دامياً فوق أرماسِ »

رقّت حواشي مهجته وشفّت عن محرّكات نفسهِ ، فسمعنا خفوق قلبه ، ورأينا ذلك القلب كما يصوّره :

« وقلبيَ مسموعُ الخفوق معلّقٌ بمنهدمِ الاركان أجوفَ معتلِّ »

بل ما أبلغ التصوير وما أشدّ التأثير عندما ينادي :

اللهَ في صدرٍ وهى وتقوّست منهُ العظامْ
خاوٍ كجوف الغار تمـ ـلأهُ المخاوف والظلامْ
إلاّ سراجاً حائلاً فيهِ يُنير بلا ابتسامْ
روحٌ تضيءُ على ضر يحٍ في صميم القلب قامْ

المجال واسع لكتابة درس من أبلغ الدروس النفسية في شعور الشاعر يُقتبَسُ من شعر الخليل . بل ان في قصيدته « المساء » التي أنشدها وهو عليلٌ في مكس الاسكندريةَ كفاية . فمن يطالعها يرى « قلباً أذابته الصبابة والجوى » ويسمع الشاعر يشكو اضطراب خواطره الى البحر وهو :

ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء
يتنابهـا موجٌ كموجِ مكارهي ويفتُّهـا كالسقمِ في اعضائي
والبحرُ خفّاقُ الجوانب ضائقٌ كمداً كصدري ساعةَ الامساء
تغشى البريةَ كدرةٌ وكأنهـا صعدت الى عينيّ من احشائي

ومن كانت هذه حالته يرى في غروب الشمس دمعة تذرفها الطبيعة على موته فيخال تلك الشمس المؤذنة بالزوال :

مرّت خلالَ غمامتين تحدُّراً　　وتقطّرت كالدمعةِ الحمراء
فكأنّ آخرَ دمعةٍ للكونِ قد　　مُزِجَتْ بآخرِ أدمعي لرثائي

فمن منا لم يشعر بمثل هذه الكآبة . ولكن قليلٌ من له مثلُ هذه المقدرة على إبراز هذه العواطف في ذلك القالب الفتان . يتمنى شاعرنا أن يكون له قلبٌ « كالصخرة الصماء » ونحن نتمنى ان يبقى قلبه رقيقاً ، ليأتي بمثل هذه الآيات البيّنات . فكما ان الشجرة لا يسيل ماؤها الاّ من جراحها فكذلك قلبُ الشاعر لا يسيلُ شعره الا من جراحه . أو كما أن العنقود لا يجود بعصيره الطيب ، ما لم تضغطهُ الآلة العاصرة ، كذلك قلب الشاعر ، لا يجود برقيق القول، ما لم تضغطه يد الأحزان والشقاء... قال اسكندر دوماس بعد مطالعته ديوان فكتور هوغو ، وفيهِ ما فيهِ من توجُّع فؤاده : « فليتبارك الربُّ الذي يُرسل لنا مثل هذه المصائب ، ليُخرج من صدرنا مثل هذا الهتاف البديع . . ! »

٣ — العقل

أيها السادة . رأينا في شعر خليل عمل القوّتين الأساسيتين في الشعر — أي الخيال والشعور ؛ وهما قوّتان قد تشردان اذا لم يكن هناك قوة ثالثة — وهي العقل — تخفف من غلوائهما . وقد أصاب قدماء اليونان اذ صوّروا الشاعر في مركبة يقودها جوادان جامحان — هما الخيال والشعور — وجعلوا زمامهما في يد « العقل » ، لئلا يطوّحا بالشاعر الى الهاوية . وهذا ما قصده ايضاً من حدّد الشعر بأنهُ «الفلسفة

تحمل زهراً » وهذا ايضاً ما أراده خليل ، لما قال إن شعره « شعر خيال وحياة وحقيقة » . فهو الشاعر الفيلسوف الذي يمعن النظر في حوادث هذا الكون وعللها ومعلولاتها ، ويستنتج منها العبَر والحكم . وفي شعر خليل الشيء الكثير من هذا القبيل . شهد الفيلسوف جول سيمون احتفالاً أُقيم اكراماً لنابليون الثالث ، فنظر الى الشعب المتجمهر الهاتف هتاف النصر نظرة غضب وازدراء ، وقال لمن حوله « هكذا يخلقون الظُلاَّم . . ! » هذا ما قاله الفيلسوف الافرنجي ، فاليكم ما قاله شاعرنا العربي عن كسرى وقومه :

هم حكّموهُ فاستبدَّ تحكُّماً وهمُ أرادوا أن يصولَ فصالا
والجهلُ داءٌ قد تقادمَ عهدُهُ في العالمينَ ولا يَزالُ عضالا
لولا الجهالةُ لم يكونوا كلُّهم إلاّ خلائقَ اخوةً أمثالا
لكنّ خفضَ الاكثرين جناحَهم رفعَ الملوكَ وسوَّد الأبطالا
واذا رأيتَ الموجَ يسفلُ بعضُهُ ألفيتَ تاليَهُ طغى وتعالا
نقصٌ لفطرةِ كلّ حيٍّ لازمٌ لا يرتجي معهُ الحكيمُ كمالا

فهذه أبيات كلها حكمة وفلسفة اجتماعية . ولا يشنّ شاعرنا الغارة على السلطة بل يريدها مبنيةً على العقل والتروي ، ألا وهو القائل « والحكم أعدلُ ما يكون جدالا » ولكن هو الاستبداد يملي عليهِ مثل هذه الابيات :

نعم هي دارٌ للملوكِ عتيقةٌ ولكن غَدَتْ للفحش داراً وبئسما
بناهُ بمالِ الناسِ قام جبايةً ولو ذوّبوا تذهيبَهُ لجرى دما

كذلك هو يشجب الاعمال الجائرة اينما رآهـا . اسمعوه يخاطب ملوك مصر بناة الاهرام

لم يُغنِكم منهُ البنـاء عاليا والأرضُ نهباً والملوك أعبُدا
وكان يُغنيكم جميلُ الذكرِ لو خفضتمُ اللحدَ وشدتم بالهدى

وهو القائل ايضاً :

معرَّةُ الظلمِ على مَن ظلَم وحُكمُ مَن جَارَ على مَن حكَمْ

كل هذا لأن الخليل فهم مهمة الكاتب ، ولا سيما الشاعر ، وهي مناصرة الخير ومناهضة الشرّ ؛ فاذا رأى القويّ يعبث بحقوق الضعيف يهتف :

فيمَ احتباسك للقلمْ والأرضُ قد خُضبت بدمْ
سدِّدْ قويمَ سنانهِ في صدرِ مَنْ لم يستقمْ
اليوم يوم القسطِ قد قامَ الأُولى ظَلَموا فقمْ

ثم ينبه قومه للنهوض من ثبات الجهل فيقول :

نمنـا على جهلٍ وقد عاشَ الكرامُ ونحن لمْ
فاذا انقضت آجالنـا فمن الرُّقادِ الى العَدَمْ
واذا بُعثنا بعدهـا فكأنها رُؤيا حلمْ

يرى الخليل أجيال الناس « تجيء وتنقضي » . يرى الممالك « تشيد بالصوارم » وتفنى بالمعايب . فبعد ذلك يقول :

ولم أرَ شيئاً كالفضيلة ثابتاً نَبَتْ عنهُ آفاتُ البلى والمعاطبُ

ثم نراه ، وقد كادت المصائب تصرعه ، يصيح من قلب مكلوم :

غلبتني صروف دهري على صبـ ـري وأفنته نارُها في الملاحم
الأمانَ الأمانَ ألقيتُ سيفي وطويتُ اللواء تسليمَ راغم

ولكن إنْ هيَ الا نفثة مصدور، لا يلبث بعد تفريجها ان يعود فيظهر مظهر الرجل الجلد :

شأني مكافحةُ الخطوب اذا دجا نقعُ الحوادثِ في الليالي السودِ

وفي شعر مطران قصائد كثيرة تتطلب درساً مستقلاً لما جاء فيها من المبادئ الاجتماعية يضطرنا ضيق المقام الى التنويه بذكرهـا فقط مثل « وفاء » و « العقاب » و « حكاية عاشقَين » و « الجنين الشهيد » و « الطفل الطاهر » الخ .

* * *

كل ما ذكرناه من المختارات بهي جميل — وهناك أيضاً غير ذلك محاسن عديدة . وبدائع شتى — وهي على ما رأيتم فيها من الجمال والسناء كالجواهر كانت اجمل واسنى لو رأيتموها منظومة في عقدها لا منثورة مستقلة كما أوردتها

وقد عرف شاعرنا أن يستفيد من لغات الاجانب دون تقليد ، وينهج نهج قدماء العرب دون تقييد ؛ فاحترس بصبغة العرب في التعبير . وادخل اساليب الافرنج في التأليف والتفكير . فكانت نتيجة ذلك انه ارغم الشعر العربي على اداء الحاجات الجديدة دون ان يتخطى ما سنّ له من القواعد القديمة . قلنا بلا تقييد ولا تقليد لأن خليلا نزوع الى الحرية في كتاباته كما هو شغف بها في حياتهِ

هذا بعض الشيء عن شاعرية خليل مطران وعبقريته . وقد رأيتم ايها السادة الخطة الجديدة التي اختطها للشعر العربي — وهي خطة المستقبل . فحق لنا بعد ذلك ان نعده استاذاً علَماً في هذا الفن . وحق لعصرنا ان يفاخر به وبأمثاله من شعرائنا النابغين ابهى عصور اللغة العربية

أجل يا سادة ، جال الشعراء في عصر العباس جولة وصلوا بها حبل النسب بين العصرَين الزاهرَين ، والعهدَين الناضرَين : عهد الرشيد والمأمون ، وعهد عباسنا الميمون . فعقدت في ذلك الالويةُ لابن الوليد وابن هانئ . وعقدت في هذا لشوقي وصبري وحافظ ومطران . فوضع مولانا — حرسه الله — بيده الكريمة آيةَ رضاه على صدر علَمها الخفاق فوق رأس فارسها السباق . كما يضع القائد شارة الفخر على لواء النصر — ولفرسان البيان اسوة بفرسان الميدان

﴿ اليمين ﴾

انما يحملُ الرَّجلَ على الحلف احدى هذه الخِلال : إما مهانة يجدها في نفسه وضرَعٌ وحاجةٌ الى تصديق الناس اياه ؛ وإما عيٌّ بالكلام حتى يجعل الأيمان لهُ حشواً ووصلاً ؛ وإما تهمةٌ قد عرَفها من الناس لحديثهِ فهوَ يُنزل نفسهُ منزلةَ مَن لا يُقبَل منهُ قولٌ الاَّ بعد جهد اليمين ؛ واما عبثٌ في القول ، أو ارسال اللسان على غيرِ رويَّةٍ ولا تقدير

(ابن المقفّع)